الفصل الثالث

الإعلام المقاوم للسلطة

١ - الإعلام فى مواجهة السلطة

فى مواجهة الدور الذى يقوم به الإعلام كأداة للسلطة فى النظم السلطوية، استخدم الإعلام من قبل بعض الجماعات الرافضة للنظام السياسى القائم، كأداة لمقاومة السلطة، وذلك عن طريق التشكيك فى شرعيتها والطعن فى سياساتها وأعمالها، والسعى لإزالتها بهدف إقامة سلطة جديدة، فإذا ما تمكنت إحدى هذه الجماعات المعارضة من قلب السلطة القائمة والحلول مكانها، سرعان ما تستخدم الإعلام كأداة فى تثبيت سلطتها الجديدة، وهكذا دواليك.

وهذه الآلية فى تغيير السلطة، وبالتالى فى استخدام الإعلام كأداة لها، ارتبط بطبيعة النظم السياسية السلطوية التى تقوم على عدم الاعتراف بحق المعارضة فى الوجود، وبالتالى لم تسمح بأية فرص للتعبير لمن يختلفون معها، فالاختلاف مع السلطة يعنى العداء معها، لذلك لم يكن أمام من يعارضون السلطة من سبيل إلا السعى لإزالتها.

ورغم أن العصور القديمة لم تترك لنا شواهد كثيرة باقية على الإعلام المقاوم للسلطة، وأن معلوماتنا عن هذا الإعلام فى مرحلة الإعلام الشفوى تكاد أن تكون معدومة، إلا أننا نستطيع أن نتلمس بعض الشواهد من مرحلة الإعلام الخطى، مع ملاحظة أن السلطة الحاكمة فى تلك الأزمان كانت تحرص على إعدام كل أثر للإعلام المقاوم، ونستطيع أن نتبين النشاط الإعلامى المقاوم للسلطة من خلال الحالات التى نجح فيها هذا الإعلام فى تغيير السلطة، كذلك نستطيع أن نتعرف عليه من خلال السوابق التى تكشف عن اضطهاد السلطة للإعلام المقاوم ويبرز

دور هذا الإعلام فى حالات الاضطراب السياسى والاجتماعى، خاصة تلك التى ترتبط بتحد للسلطة القائمة؛ حيث يقوم الإعلام المقاوم بدور كبير فى تعبئة مشاعر الناس ضد السلطة، وهناك مؤشرات على دور كبير للإعلام المقاوم فى عصر الأسرات الفرعونية وأن هذا الإعلام لعب دوراً رئيسياً فى معظم الاضطرابات السياسية التى جرت فى ذلك العصر وغالباً ما قاده رجال الدين الذين كان لهم نفوذ كبير فى المجتمع المصرى فى العصر الفرعونى، وتسجل إحدى البرديات تعليمات وأوامر من فرعون تحذر الشعب من الدعايات المغرضة، وتهدد بالعقاب من يخالف هذه الأوامر والتعليمات ويستمع لأحاديث المرجفين[1].

كما جرت مناقشات مناوئة للسلطة فى الهند فى عهد الإمبراطور اسوكا، ودار أغلبها حول الحدود الممكنة للسلطة من ناحية وللحرية من ناحية ثانية، كذلك لجأ الخوارج العبرانيون إلى الكهوف وأخفوا فيها مخطوطاتهم، وفى أثينا حكم على سقراط بالموت بتهمة إفساد الشباب وتحريضهم على تحدى السلطة[2]، واضطهد الرومان المبشرين المسيحيين الأوائل بسبب ما استشعروه من تهديد الدين الجديد لسلطتهم المطلقة.

وعرف التاريخ الإسلامى ألواناً متعددة من الإعلام الرافض أو المناوئ للسلطة، بدءاً من دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم قريش والعرب للإسلام، ومقاومتهم له واضطهادهم لأصحابه خوفاً على نفوذهم وسطوتهم فى حال نجاح الدين الجديد، مما اضطر الرسول إلى الهجرة من مكة إلى المدينة عندما حيل بينه وبين الدعوة إلى الإسلام فى مكة.

وعقب الفتنة الكبرى ومقتل ثالث الخلفاء عثمان بن عفان، ثم مقتل الإمام على بن أبى طالب من بعده، وتوليه معاوية بن أبى سفيان لأمور الخلافة، عرف التشييع لآل البيت، وبالذات لعلى وآله، واعتمد العلويون على الإعلام المقاوم العلنى والسرى، وكان فى البداية ضد سلطة الأمويين ثم تحول بعد ذلك ضد سلطة العباسيين.

وتكشف لنا الوثائق التاريخية المستوى الرفيع الذى وصلت إليه فنون الإعلام المقاوم على أيدى الفاطميين، ونقل عن المعز لدين الله الفاطمى قوله "ما من جزيرة فى الأرض، ولا إقليم إلا ولنا فيه حجيج دعاة يدعون لنا ويأخذون بيعتنا ويذكرون رجعتنا وينشرون علمنا وينذرون ببأسنا ويبشرون بأمامنا، مع تصاريف اللغات واختلاف الألسن، وفى كل جزيرة وإقليم رجال يفهمون وعنهم يأخذون حسب قول الله عز وجل ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾"[٣].

وعندما استولى الفاطميون على السلطة فى المغرب، ثم مدوا سلطتهم إلى مصر وبعض مناطق الشرق العربى، واجههم العباسيون بإعلام مضاد استهدف زعزعة سلطتهم وإثارة الرعية ضدهم، ويصف ابن خلدون فى مقدمته هذا الإعلام العباسى المناوئ للفاطميين فيقول "وكانت أبواق الدولة العباسية يطعنون بالنسب الفاطمى، ويؤلون أعمال الحاكم (يقصد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله) الحسنة تأويلاً سيئاً، فيقولون: منع النزهة على ضفاف النيل، وقطع رزق المنجمين، وهدم بيوتاً، وقتل كلاباً وخنازير، وأراق خموراً، ونحى بعض الموظفين، وقطع إحسانه عن قوم عودهم الإحسان، وجازى بعض التجار"[٤].

وفى أوربا العصور الوسطى وبداية العصر الحديث، كان للإعلام المناوئ أو الرافض للسلطة دور كبير فى إثارة الفتن والاضطرابات والحروب الأهلية، كذلك كان أحد الأسلحة الرئيسية فى كل نزاع ينشب بين الحكام والمحكومين، أو بين الحكام وآخرين طامعون فى الحكم، وقد لجأ الإعلام المقاوم إلى الندوات والاجتماعات والخطب العامة والرسائل السرية وكذلك الإشاعات، وقد شهدت بريطانيا شيئاً كثيراً من ذلك فى الحرب الأهلية التى أسفرت فى القرن السابع عشر عن إعدام الملك شارل الأول فى عام ١٦٤٥م، كذلك أثناء ثورة عام ١٦٨٨م، التى أطاحت بعرش الملك جيمس الثاني[٥].

وقد أصبح الإعلام المقاوم أكثر فعالية مع ظهور الطباعة، بما أوجدته من إمكانية ذيوع الأفكار بما يتجاوز كثيراً التأثير المباشر لأصحابها، لذلك كثيراً ما كان إنشاء المطابع محظوراً فى العديد من البلدان الأوربية حتى بداية القرن الثامن عشر ولا

يسمح به إلا بترخيص من الحكومة، وكانت المطابع تتعرض كثيراً للتدمير[٦]، وقد وصم الفكر المجدد فى الفلسفة بأنه هرطقة وعدم تقوى، وأن كثيراً من الرجال الذين يعتبرون حالياً رواداً للفكر والتنوير، كانوا قد حرموا من نشر أعمالهم وفصلوا من الجامعات وأمروا بنبذ أفكارهم تحت تهديد العقاب بالسجن أو حتى بالموت، لقد أقامت ظلمة أوربا فى العصور الوسطى سدوداً منيعة استمرت طويلاً فى وجه الاكتشافات العلمية والفكرية، ولكن عندما حل عصر الطباعة والتوزيع الواسع للكتب، لم تستطع أية أوامر عليا من السلطات مقاومة المد الجارف، وأصبح الطريق بعد مشقة ومعاناة، مفتوحاً أمام التحولات العلمية والفكرية التى أدت إلى عصر النهضة والإصلاح الديني"[٧].

وهكذا أصبحت المطابع سلاحاً إعلامياً فى أيدى الجماعات المقاومة للسلطة تماماً كما كانت سلاحاً فى يد السلطات الحاكمة.

وقد اتخذ الإعلام المقاوم بعداً جديداً بظهور الصحف، ولوحظ تاريخياً أنه كلما وجدت حالة من النزاع السياسى الذى يرتبط بتحد للسلطة القائمة، وجد قطاع من الصحف تقوم بدور الناطق بلسان الرأى العام.

وفى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر لعبت المنشورات السياسية المطبوعة والكتب المطبوعة والصحف دوراً ساد الاعتقاد بأنه أساسى فى قيام الثورتين الفرنسية والأمريكية[٨].

وفى تلك الفترة كانت نشاطات الصحف المعارضة تثير السلطة وتهددها فى كثير من الأحيان، وقد ردت الحكومات على ذلك بتوقيع الحجز على ممتلكات الصحفيين وتجريدهم من الحقوق، واتخاذ الإجراءات والقوانين المقيدة لحرية الصحف بما فى ذلك سجن الصحفيين.

لذلك كان من الطبيعى أن يطالب خصوم السلطة المطلقة من الصحفيين والمفكرين الأحرار بحرية استخدام المطابع وحرية توزيع إنتاجها، فى حين ادعت الحكومات السلطوية أن لها الحق فى الرقابة على المطابع باعتبارها الأداة الرئيسية

لنشر الأفكار[٩]، وفى المقابل فإن القوى المناوئة للسلطة المطلقة كانت تسعى لانتزاع إحدى وسائل التأثير فى الرأى العام من أيدى السلطات المطلقة وأن تحرمها من احتكار توجيه الرأى العام[١٠].

وإذا كانت حرية النشر والصحافة قد استقرت بمفهومها الليبرالى الحديث فى غرب أوربا وفى الولايات المتحدة الأمريكية منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين، بحيث لم تعد هناك حاجة جدية للصحافة المقاومة، فتضاءل دورها فى هذه المجتمعات، وإن لم تختف تماماً وخاصة فى ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية، ولكن فى المقابل فقد ازدهر دور الإعلام المقاوم فى بقية أنحاء العالم فى ذات الفترة تقريباً واستمر حتى الآن، حيث لم تكن هناك حرية للإعلام والنشر والصحافة فى كافة البلدان الواقعة تمت الحكم المطلق، كما كان الحال فى روسيا القيصرية وفيما بعد فى الاتحاد السوفيتى، كما لم تكن هناك حرية إعلام وصحافة فى مناطق شاسعة فى آسيا وأفريقيا وفى الأمريكتين، التى أصبحت معظم مناطقها مستعمرات للدول الأوربية، لذلك كان من الطبيعى أن تظهر فى هذه المجتمعات صحف علنية وسرية تقاوم الاحتلال الأجنبى وتدعو للتحرر الوطنى والاستقلال، وقد تعرضت تلك الصحف لجميع أنواع القمع مثل الرقابة والإلغاء والمصادرة للصحف العلنية والمطاردة للصحف السرية[١١].

ورغم كل تلك العقبات، فقد كان لصحف الرأى الثورية دور فعال فى نجاح حركات التحرر الوطنى أو فى دعم الحركات الاشتراكية فى الدول الرأسمالية أو فى نمو المعارضة الديموقراطية ضد الحكومات السلطوية، وعلى سبيل المثال كانت صحيفة الريسورجيمنتو Risorgimento لكافور، وأيسكرا Iskra للينين، وهاريجان Harijan لغاندى وغيرها من الصحف بمثابة رؤوس الحرية فى ثورة الأفكار، وساعدت على هدم صروح السلطة القائمة، بأن أيقظت الملايين المستسلمة وقتئذ وعبأت قواها، وكانت الصحافة فى تلك الظروف تمثل رسالة أكثر منها مهنة، ولم يقتصر الأمر على تداول الناس لتلك الصحف، بل كان من يعرفون القراءة يتلون ما بها على الأميين، وبذلك تجاوز نفوذها نطاق توزيعها[١٢].

وقد اضطرت الكثير من هذه الصحف الثورية، المقاومة للسلطة، تحت ضغط الرقابة المشددة والمطاردة المستمرة من قبل السلطات الحاكمة فى بعض الدول، إلى الصدور فى الخارج والعمل على تهريب نسخها إلى الداخل.

وكان للصحافة العربية تجربة متميزة فى هذا المجال، حيث عرفت الهجرة فى فترة مبكرة من تاريخها، فقد نشأت الصحافة العربية فى عام ١٨٢٨م، حين صدرت بالقاهرة جريدة الوقائع المصرية، فى حين أن أول صحيفة عربية مهاجرة ظهرت فى عام ١٨٥٥م عندما أصدر رزق الله حسون الحلبى صحيفة مرآة الأحوال فى الأستانة عاصمة الدولة العثمانية، أى بعد سبعة وعشرين عاماً فقط من نشأة الصحافة العربية، وقد أغلقت "مرآة الأحوال" بعد عام واحد فقط من صدورها، لأن الجريدة تضمنت "فصولاً لا تخلو من تقبيح الأتراك والتنديد بأعمال الحكومة العثمانية؛ لأن حسون كان حر الأفكار طويل البال فى الإنشاء مر الهجو كالفرزدق، فصمم الباب العالى على إلقاء القبض عليه، ففر هارباً إلى روسيا، فحكم عليه الأتراك حكماً غيابياً بالإعدام، وفى عام ١٨٧٦ وصل حسون إلى لندن وأعاد إصدار جريدته منها وكانت أول صحيفة عربية تهاجر إلى لندن.

وقد اتخذت هجرة الصحافة العربية مساران: الأول: الهجرة الخارجية التى تمثلت فى الهجرة من الأقطار العربية إلى خارج الوطن العربى بخاصة إلى بعض دول غرب أوربا وأهمها إنجلترا وفرنسا وإيطاليا، والهجرة الداخلية من قطر عربى إلى قطر عربى آخر تتوفر به مساحة أكبر من الحرية الصحفية، وقد تركزت الهجرة الصحفية العربية الداخلية إلى مصر منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين، ثم انتقلت إلى بيروت مع بداية النصف الثانى من القرن العشرين حتى قيام الحرب الأهلية اللبنانية فى عام ١٩٧٥م؛ حيث اقتصرت الهجرة على الخارج وتركزت فى لندن وباريس وقبرص؛ وذلك حين افتقدت الصحف المناوئة والصحفيين المناوئين لأنظمة الحكم فى بلدانهم أى منفذ للحرية الصحفية فى المنطقة العربية[١٣].

٢ - الثورة الإلكترونية فى خدمة الإعلام المقاوم

لقد أضاف الاتصال الإلكترونى وسائل إعلامية جديدة أضيفت إلى الترسانة الإعلامية للحكومات السلطوية، ولكنه وضع بين يدى الجماعات الرافضة أو المناوئة أدوات إعلامية جديدة لمقاومة السلطة القائمة؛ حيث اخترقت الإذاعات السرية والموجهة حصار الاحتكار الذى تفرضه أى دولة على الإعلام داخل حدودها، ولعبت هذه الإذاعات دوراً كبيراً فى الحرب النفسية خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية، كذلك استخدمتها حركات التحرر الوطنى فى العالم الثالث كأداة إعلامية لمقاومة الاستعمار، ومن غير الممكن إنكار الدور الذى قامت به إذاعة ثورية موجهة من القاهرة مثل إذاعة "صوت العرب" فى تفعيل حركة التحرر الوطنى العربية. وقد ساعد ذلك على ظهور وانتشار الراديو الترانزستور، كذلك فإن شرائط التسجيل "الصوتى" الصغيرة التى حملت أفكار الإمام الخمينى التى كان يتم تهريبها من مقره فى باريس إلى إيران وتنسخ منها ملايين الأشرطة، قد لعبت دوراً فعالاً فى الإسراع بالثورة على الشاة فى نهاية السبعينيات. وهناك العشرات من مثل هذه الحالات وجدت فى العديد من دول العالم الثالث وفى بعض البلدان العربية.

وبظهور الفيديو وتطور تقنيته وانخفاض تكلفته أمكن للأفراد تصوير أفلام فيديو بكاميرات صغيرة تحتوى على مواد إخبارية وأحداث تم التعتيم عليها إعلامياً وإرسالها إلى وسائل إعلام خارجية تستطيع أن تذيعها على العالم بأسره، ومنذ منتصف الثمانينات تمكن العديد من المصورين الهواة فى الاتحاد السوفيتى ودول شرق أوربا من تصوير أفلام عن حقيقة الأحداث التى تم التعتيم عليها فى هذه

الدول وتهريبها إلى وسائل الإعلام الغربية، وكذلك فعل بعض الفلسطينيين وتمكنوا من فضح الممارسات الإسرائيلية غير الإنسانية ضد شباب الانتفاضة الأولى.

لذلك يمكن القول أن شرائط الكاسيت الصوتية الصغيرة، وكاميرات الفيديو المنزلية اللتان اتسمتا بالطابع الشخصى وغير الرسمى فى الاستخدام قد مكنت الفئات الرافضة أو المناوئة للسلطة من بناء قنوات اتصال مستقلة بعيدة عن الإعلام الرسمى.

ثم أضافت تكنولوجيا البريد الإلكترونى والفاكس والإنترنت بعداً جديداً للإعلام الرافض، حيث استخدمت هذه الأدوات الإعلامية الجديدة فى نشر وإذاعة بيانات ومعلومات وتحليلات معادية للسلطة دون أن تتمكن السلطة من معرفة مصدرها أو تحول دون وصولها إلى أعداد متزايدة من مواطنيها.

وكان للإعلام الغربى الإلكترونى دور حاسم فى انهيار الاتحاد السوفيتى والحكومات الاشتراكية فى دول شرق أوربا، حيث استطاع أن يستفيد من التطور الهائل فى تكنولوجيا الاتصال والإعلام الإذاعى والتليفزيونى، وأن يخترق الحواجز بين الشرق والغرب، وأن ينفذ من الستار الحديدى الذى فرض على شعوب الاتحاد السوفيتى ودول شرق أوربا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وأن يدفع تلك الشعوب إلى الانقلاب على النظم الاشتراكية التى تحكمها، وأن تتطلع إلى محاكاة النموذج الغربى فى الحياة.

إن البث الإذاعى التليفزيونى الغربى استطاع أن يصل إلى أعداد متزايدة من المستمعين والمشاهدين فى الكتلة الشرقية، ولم يكن عامل اللغة يشكل عائقاً دون وصول البرامج الإذاعية الموجهة إلى المستمعين فى الكتلة الشرقية، فقد كانت هذه البرامج تقدم بكافة اللغات المستخدمة بين شعوب الاتحاد السوفيتى ودول شرق أوربا، بل وببعض اللهجات المحلية، أما التليفزيون فإن طبيعة برامجه التى تعتمد بشكل أساسى على فن الصورة المتحركة، وتقلل كثيراً من أهمية اللغة وإن كانت

لا تلغيها، وكذلك فإن عمليات التشويش على البرامج الإذاعية والتليفزيونية، فقدت منذ بداية الثمانينات جدواها؛ حيث ساعد التطور التكنولوجى لوسائل الاتصال الدولى على ابتكار العديد من الطرق للتحايل عليها فضلاً عن تكاليفها الباهضة التى تصل فى بعض الأحيان إلى ما يوازى تكلفة البث الإذاعى والتليفزيونى المراد التشويش عليه، كما أن إيقاف التشويش الإذاعى والتليفزيونى المتبادل بين الشرق والغرب، كان واحداً من أسس الوفاق بين المعسكرين، بل واعتبر من المؤشرات الهامة لإثبات مدى صدق النوايا فى استمرار سياسة الوفاق.

ومن المفارقات التاريخية أن الاتحاد السوفيتى كان فى مقدمة الدول التى استفادت من اكتشاف إمكانية الموجة القصيرة فى البث الإذاعى، فأقامت إذاعة موجهة إلى غرب أوربا باللغة الإنجليزية، وقد بلغ من تأثير هذه الإذاعة أنها أثارت بريطانيا بحيث سارعت بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٢٧[١٤].

ولكى ندرك حجم الدور الذى لعبه الإعلام الغربى فى انهيار الكتلة الشرقية يكفى أن تشير إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تبث خمس إذاعات موجهة إلى شعوب الاتحاد السوفيتى وشرق أوربا وفى مقدمتها إذاعة صوت أمريكا (Voice of America) وهى تحت الإشراف المباشر للحكومة الأمريكية، وتخدمها ١١٣ محطة إرسال فى الولايات المتحدة وخارجها، وتذيع ٧٧٦ ساعة أسبوعياً إلى مختلف أنحاء العالم، كانت من بينها ٤٦٠ ساعة موجهة إلى الاتحاد السوفيتى ودول شرق أوربا، وتقدم برامجها بخمس وثلاثين لغة، منها ١٧ لغة مستخدمة فى الاتحاد السوفيتى وشرق أوربا[١٥].

وهناك إذاعة Rias وهى إذاعة أمريكية كانت تبث من برلين الغربية وتعمل ٢٤ ساعة يومياً وهى موجهة بالأساس إلى ألمانيا الشرقية. وهناك إذاعة راديو أوربا الحرة Radio Free Europe وكانت تبث برامجها من ميونيخ بألمانيا الغربية وتديره اللجنة الوطنية لأوربا الحرة، وهى لجنة تسيطر عليها المخابرات الأمريكية CIA وتوجه برامجها إلى دول شرق أوربا. وهناك راديو الحرية Radio Liberty ويبث

برامجه من ميونيخ بألمانيا الغربية ويذيع برامجه بعشرين لغة من اللغات المستخدمة فى شرق أوربا والاتحاد السوفيتى، وكان يركز على تناول الأحداث التى تقع فى الكتلة الشرقية من وجهة نظر غربية.

وهناك أخيراً إذاعة القوات المسلحة الأمريكية التى تبثها القوات الأمريكية المرابطة فى ألمانيا الغربية وتغطى برامجها كافة أراضى ألمانيا الشرقية.

أما هيئة الإذاعة البريطانية B.B.C فكانت تذيع ٧٠٠ ساعة أسبوعياً منها حوالى ٣٢٠ ساعة موجهة إلى الاتحاد السوفيتى ودول شرق أوربا، وكانت تذيع بعشر لغات من اللغات المستخدمة فى الكتلة الشرقية وتستخدم ٧٠ محطة إرسال داخل انجلترا وخارجها.

ولم تكن تخلو دولة من دول المعسكر الغربى وبالذات دول غرب أوربا من إذاعة موجهة إلى الكتلة الشرقية.

وبالنسبة للتليفزيون فقد كان إرسال محطات التليفزيون فى ألمانيا الغربية يغطى كامل أراضى ألمانيا الشرقية، كذلك فإن الإرسال التليفزيونى فى دول غرب أوربا كان يغطى مساحات غير قليلة من دول الكتلة الشرقية المتاخمة لها، وقد أقامت دول غرب أوربا محطات تقوية للإرسال التليفزيونى بالقرب من حدودها مع دول الكتلة الشرقية، وهو الأمر الذى مكن هذا الإرسال من الوصول بوضوح إلى العديد من المناطق فى دول شرق أوربا[١٦].

وكانت المحطات الإذاعية والتليفزيونية الغربية تحرص على تقديم تغطية إخبارية للأحداث بشكل عام وللأحداث فى الكتلة الشرقية بشكل خاص من وجهة نظر غربية وبأسلوب يوحى بأن القرار فبى الدول الاشتراكية يتم فى غير صالح شعوب هذه الدول، والترويج للأفكار الليبرالية واقتصاد السوق والتعددية السياسية وفى الوقت نفسه إبراز مساوئ الاشتراكية، وتقديم صورة جذابة لأسلوب الحياة فى المجتمعات الغربية. وفى الوقت نفسه تقديم صورة سلبية لأسلوب الحياة فى المجتمعات الاشتراكية مع التركيز على افتقاد الحريات وعدم توافر أدوات الرفاهية.

وقد اعترف الرئيس السوفيتى السابق ميخائيل جورباتشوف فى كتابه (البروسترويكا) بخطورة الدور الذى لعبه الإعلام الأمريكى فى التأثير على شعوب الاتحاد السوفيتى وذلك بقوله: "إن الإعلام الأمريكى يصور للمواطنين السوفيت أن أمريكا هى الجيل المتلألئ، فى حين يصور الاتحاد السوفيتى باعتباره إمبراطورية الشر"[١٧].

٣ - تجربة حرب الخليج والإعلام المناوئ

وتقدم لنا حرب الخليج التى وقعت بعد الاجتياح العراقى للكويت فى ٢ أغسطس ١٩٩٠م، تجربة متميزة فى استخدام الإعلام المناوئ، سواء من جانب العراق أو دول التحالف بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية؛ حيث غلب على الممارسة الإعلامية طابع الدعاية والحرب النفسية، ومن المهم أن نشير فى هذا الصدد أن الإعلام يقوم على الحقائق وحدها فى حين لا تكتفى الدعاية بالحقائق فقط وإنما قد تضيف إليها أو تحذف منها بعض التفاصيل بهدف التهويل أو التهوين، أما الحرب النفسية فهى تنحو غالباً إلى الكذب والتلفيق والإشاعات بهدف إثارة الخوف والذعر والإرهاب.

لقد لجأ العراق مثلاً إلى استخدام أساليب الدعاية والحرب النفسية فضخم من حجم وخطورة ما يملكه من أسلحة دمار كيماوية وصواريخ بعيدة المدى بهدف إثارة الخوف والذعر بين دول الخليج من ناحية ولإثناء دول التحالف عن التصدى العسكرى للعراق من ناحية ثانية، كذلك روج العراق إشاعات عن وجود طائرات له فى كل من اليمن والسودان محملة بالأسلحة الكيماوية ومستعدة للهجوم على المملكة العربية السعودية ومصر، قاصداً بذلك إضعاف تصميم الدولتين على التدخل لصالح الكويت. وعندما روجت بعض وسائل الإعلام الكويتية والعربية والغربية معلومات عن ارتكاب القوات العراقية فى الكويت لتجاوزات ضد الشعب الكويتى، لم يتصد الإعلام العراقى لنفى تلك الممارسات والتجاوزات وصمت عن التعليق عليها، وفى الوقت نفسه أوعز إلى بعض وسائل الإعلام الموالية له داخل الكويت وخارجها، وخاصة بعض الصحف العربية التى كانت تصدر فى

لندن وباريس بتأكيد هذه التجاوزات والتضخيم منها بقصد إثارة الذعر بين الكويتيين المعارضين له داخل الكويت لدفعهم إلى الهرب من الكويت، وتخويف الكويتيين فى الخارج من مجرد التفكير فى العودة إليها.

وقد استفاد العراق من التطور فى تكنولوجيا الاتصال الإذاعى والتليفزيونى بحيث تمكن أن يصل بإرساله الإذاعى إلى أبعد من حدوده الوطنية، وقد تمكن العراق أن يزيد من قدراته الإذاعية فأصبح يملك قبيل الحرب ٢٤ استديو إذاعيًّا بعد أن كانت ثلاثة استديوهات فى بداية السبعينات، وأصبح الإرسال الإذاعى يرتبط بشبكة ميكروويف بعد أن كان يتم بواسطة الكابلات الأرضية وقد هيأ هذا التطور الفرصة لإيصال البث الإذاعى إلى أماكن بعيدة، وبعد أن كان العراق يفتقد إلى الفنيين المؤهلين، تم توفير العديد منهم عن طريق البعثات الخارجية واتفاقيات التعاون الإذاعى مع الاتحاد السوفيتى وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الديمقراطية (سابقاً)، وبعد أن كانت الخدمة الإذاعية قاصرة على البث المحلى باللغة العربية وحدها، أنشأ العراق العديد من الخدمات الإذاعية الموجهة إلى مختلف دول العالم باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية والفارسية والعبرية والكروية والأوروبية، كذلك قام العراق بإنشاء مجمع إرسال بابل الإذاعى الذى يشمل على عدة محطات إرسال بالموجات المتوسطة والقصيرة، تزيد قدرة كل منها على ألف وات، وقد مكنه هذا المجمع من تغطية مساحات واسعة فى الأردن وفلسطين بالبث النهارى، وتغطية الأقطار العربية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط حتى مدينة الجزائر بالبث الليلى، واستخدم الموجة القصيرة فى تغطية معظم أنحاء العالم وخاصة فى أوربا وآسيا وإفريقيا والأمريكيتين بالبث الإذاعى، وبهذه الإمكانات الإذاعية تمكن العراق خلال أزمة الخليج من إقامة خدمات إذاعية موجهة جديدة مكنته من إيصال صوته إلى الشعوب التى يود التأثير على الرأى العام فيها لصالحه، فزاد من ساعات إذاعة (صوت الجماهير) وأصبحت تعمل على مدار الأربع والعشرين ساعة فى اليوم، وزاد من نطاق إرسالها بحيث أصبحت تسمع فى كافة أنحاء العالم العربى، وأنشأ العراق أيضاً إذاعة (المدينة المنورة) ووجهها إلى

المملكة العربية السعودية، وإذاعة (الخليج والجزيرة العربية) ووجهها إلى دول الخليج واليمن، وإذاعة (مصر العربية) ووجها إلى مصر، كذلك أنشأ العراق إذاعة (صوت السلام Voice of Pease) باللغة الإنجليزية ووجهها إلى الجنود الأجانب فى قوات التحالف التى تجمعت على أرض السعودية وبعض دول الخليج تمهيداً للاشتراك فى الحرب على العراق.

وبالنسبة للخدمة التليفزيونية، فقد كان العراق لا يملك سوى استديو تليفزيونى واحد فى مطلع السبعينات فأصبح له ٢٠ استديو تليفزيونيًّا مجهزة بأحدث تكنولوجيا، ولم يكن العراق يملك سوى عربة نقل خارجى واحدة، فأصبح له قبيل الحرب أكثر من ثلاثين سيارة مجهزة بأحدث مستلزمات الاستديو التليفزيونى المتنقل، وأصبح للعراق ست محطات للبث التليفزيونى فى بغداد والبصرة وكركوك ونينوى وميسان والمثنى، بالإضافة إلى ٤٠ محطة تقوية؛ بحيث تمكن العراق من تغطية كافة أنحاء العراق بالخدمة التليفزيونية، وبفضل محطات التقوية أصبح الإرسال التليفزيونى العراقى يمكن مشاهدته فى مناطق عديدة قريبة منه فى دول الخليج العربية وإيران.

كذلك فقد نجح العراق فى الاستفادة من ظاهرة الصحف العربية التى تصدر فى أوربا خاصة تلك التى تصدر فى لندن وباريس وتوزع فى العالم العربى وبين العرب الذين يعيشون فى أوربا، فتمكن من إصدار بعض الصحف، كما شارك فى تمويل البعض الآخر، كما استطاع كسب تأييد العديد من الأقلام فى بعض الصحف التى تصدر فى البلدان العربية.

أما على الناحية الأخرى فلم تُقصر دول التحالف بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية فى استخدام وسائل الإعلام فى الدعاية والحرب النفسية ضد العراق، وعلى سبيل المثال، ففى الأسابيع الأولى من وقوع الاجتياح العراقى للكويت، وقبل أن تستكمل قوات التحالف الاستعدادات للتدخل العسكرى، روجت بعض وسائل الإعلام الغربية معلومات عن وجود نية لاستخدام أسلحة نووية نظيفة ضد العراق فى حالة شروعه فى التحرك ضد السعودية أو بعض دول الخليج العربية

الأخرى، وكان الهدف من تسريب هذه المعلومات ردع العراق عند التفكير فى توسيع نطاق اجتياحه إلى دول أخرى بالمنطقة.

وقد كشفت تجربة أزمة الخليج أن ما يملكه العراق ـ فى ذلك الوقت ـ من نظم اتصال وإعلام لم تكن بالمستوى الذى يؤهله للدخول فى مواجهة مع الإعلام الغربى، لذلك لم يكن غريباً أن يتم التشويش بنجاح على إرسال الخدمات الإذاعية العراقية الموجهة إلى الخارج بعد أسابيع قليلة من بداية الأزمة بحث تم خنق صوت العراق داخل حدوده الجغرافية، بل أن الإمكانات التكنولوجية المتقدمة فى مجال الاتصال والإعلام لدى الولايات المتحدة الأمريكية والدول الغربية المشاركة فى التحالف مكنتها من اختراق الأجواء العراقية، فأضعفت من أثر أجهزة التشويش العراقية على إرسال الإذاعات الموجهة ضد العراق من ناحية، ومكنت العديد من الإذاعات الغربية المعادية للعراق من أن تسمع بوضوح فى كافة أنحاء العراق، وهو الأمر الذى كان له أثر كبير فى إضعاف فعالية وتأثير الإعلام العراقى فى الداخل والخارج على حد سواء.

وعلى سبيل المثال فقد حاول العراق استخدام إرساله التليفزيونى الذى كان يغطى مساحات غير قليلة من مناطق حدوده المشتركة مع السعودية، حيث كانت تتجمع قوات التحالف، للتأثير على معنويات الجنود العرب المشاركين فى قوات التحالف والمعسكرين على طول الجبهة مع الكويت والعراق وخاصة الجنود المصريين، لذلك أسرعت مصر باستخدام القناة غزيرة الإشعاع بالقمر الصناعى العربى (عربسات) لكى تبث من خلالها برامج التليفزيون المصرى إلى جنودها فى المنطقة، وقد أمكن بالفعل استقبال هذا البث من القمر مباشرة عن طريق هوائيات خاصة أو استقباله بالطريقة العادية من خلال تليفزيون البحرين الذى كان يستقبل الإرسال المصرى من عربسات ثم يعيد بثه من خلال محطته الأرضية إلى أجهزة التليفزيون المنزلية.

كذلك لا يمكن إغفال أهمية القرار الفرنسى بإيقاف أربع عشرة صحيفة عربية كانت تصدر فى باريس مؤيدة للعراق، باعتبارها صحفاً تروج لدولة فى حالة حرب مع فرنسا، وقد حرم هذا القرار العراق من أدواته الصحفية المؤثرة.

ولاشك أن الثورة التكنولوجية فى مجال الاتصال والمعلومات ـ وكانت فى أوجها فى ذلك الوقت ـ قد وضعت المبادرة الإعلامية فى أيدى وسائل الإعلام الغربية وبخاصة وسائل الإعلام الأمريكية، ويكفى فى هذا المجال أ، نشير إلى فرع واحد من هذا التقدم الإعلامى الغربى، وهو البث المباشر عبر الأقمار الصناعية وإلى وسيلة واحدة من بين عشرات أو مئات من وسائل الإعلام الغربية التى شاركت فى التغطية الإعلامية لأزمة الخليج وهى شبكة (الكابل الإخبارى الأمريكى Cable News Network) أو (سى ـ إن ـ إن C.N.N) والتى تذيع من مدينة أطلنطا بولاية جورجيا التى كانت تعمل على مدار الأربع والعشرين ساعة يومياً، وكانت تبث أخبارها ـ فى ذلك الوقت ـ إلى عشرة ملايين مشترك بها وربع مليون فندق وسفارة وشركة للتجارة والأعمال والبورصات خارج الولايات المتحدة الأمريكية فقط، وقد وصل إرسالها خلال أزمة الخليج إلى الاتحاد السوفيتى وإفريقيا الشرق الأوسط واليابان، بالإضافة إلى الولايات المتحدة وكندا وأوربا، وكانت تبث أحداث الخليج مباشرة وفى وقت حدوثها، وتابع الملايين فى أنحاء متفرقة من العالم مراسلى الشبكة وهم يسجلون ويصورون من فندقهم فى بغداد طائرات دول التحالف وهى تُغير على المواقع العراقية، وقد بلغ تأثير هذه الشبكة خلال حرب الخليج من القوة إلى الحد الذى أبقى فيه العراق على مراسلى الشبكة فى بغداد، فى حين طرد كافة مراسلى وسائل الإعلام العربية والأجنبية، وحين وجد العراق نفسه محاصراً إعلامياً لم يجد وسيلة إعلامية يخاطب من خلالها الرأى العام العالمى، سوى هذه الشبكة الإخبارية الأمريكية ووفق شروطها بالطبع!

ولعلها لم تكن مصادفة أن توفر أحداث الخليج الفرصة لبدء المشهد الافتتاحى للإعلان عن ظهور النظام الإعلامى الدولى الجديد، حيث مارس الإعلام الغربى تحت قيادة الإعلام الأمريكى قدرته على السيطرة على الإعلام الدولى دون وجود منافس ينازعه على تلك السيطرة، لذلك فإن نجاح الإعلام الغربى الأمريكى فى تجميع الرأى العام العالمى على موقف موحد تجاه قضية سياسية، وهى هنا أدانه العدوان العراقى على الكويت يعتبر من الأحداث الإعلامية النادرة منذ نهاية

الحرب العالمية الثانية؛ ذلك أن الصراع بين النظامين الإعلاميين الشرقى بقيادة الاتحاد السوفيتى والغربى بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية كان يحول دون انفراد أى منهما بتوجيه الرأى العام العالمى، خاصة فى القضايا السياسية.

وطوال القرن العشرين حتى الآن فإن احتكار وسائل الإعلام الجماهيرية من قبل السلطة فى العديد من الدول الاستبدادية يخترق من قبل وسائل اتصال أخرى، وإذ تنتقل الأنباء والأفكار بالحديث الشفوى الشخصى أو الجمعى، وتوزع المنشورات غير القانونية، وقد تكون هذه الوسائل تقليدية أو بدائية إلا أنها ما تزال تحتفظ بحيويتها، ويزيد القمع والرقابة من مدى تصديق الناس لها. وتقدم لنا تجربة انتشار الفكر السياسى والدينى والمتطرف فى مصر فى ربع القرن الأخير ـ بصرف النظر عن الاختلاف فى تقدير مدى هذا الانتشار ـ نموذجاً مثالياً لكيفية اختراق الإعلام الرافض أو المناوئ لاحتكار السلطة لوسائل الإعلام فى المجتمع.

هوامش الفصل الثالث

١- جمس هنرى برستيد: انتصار الحضارة، ترجمة أحمد فخرى، القاهرة، ١٩٥٨، ص٩٠، وعبد القادر حاتم، الرأى العام وتأثره بالدعاية والإعلان، ص١٦، ١٧.

٢- شون ماكبرايد: أصوات متعددة وعالم واحد ـ الاتصال والمجتمع اليوم وغداً، ص٣٥.

٣- عبد القادر حاتم: الرأى العام وتأثره بالإعلام والدعاية، ص٢٨.

٤- لمزيد من التفاصيل انظر مقدمة ابن خلدون، ص٢١٦، والحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية لمحمد عنان، ص١٦٨، والدروز ظاهرهم وباطنهم لمحمد على الزغبى، ص٤٤.

5- Laski . Harold: The Rise of European Liberalism. P.P. 203-211.

6- Faster . Heil: Communication In History. P.P. 73-76.

٧- شون . ماكبرايد: أصوات متعددة وعالم واحد، ص٣٥-٣٦.

٨- جيهان رشتى: ص٢٠.

9- Evans . Harold: Liberty and Licence: Heineman. London. 3rd Edition. 2002. P.P. 42-47.

10- Crossett . John: Liberal and Conservative. Free Press. M.S.A. 2001. P.P. 62-67.

11- Row . Koland: Communication and Change. Heineman. London. 2003. P.P. 117-119.

١٢- شون . ماكبرايد: أصوات متعددة وعالم واحد، ص٣٩.

١٣- لمزيد من التفاصيل انظر فاروق أبو زيد: الصحافة العربية المهاجرة، الطبعة الثانية، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٢.

١٤- سهير بركات: الإذاعة الدولية، الكويت، ١٩٧٨، ص٢١-٢٤.

١٥- د. ر. مانكيكار: التدفق الحر من جانب واحد، ترجمة فائق فهيم، اليونسكو، ص٦٩.

16- Burto. Paulu: Radio and Television Broadcasting on The European Continent. University of Minnesota Press. 3rd Edition. U.S. 2003. P.P. 73-78.

١٧- جورباتشوف. بيروسترويكا: ترجمة وليد مصطفى وآخرين، دار الكرنك للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، عمان ١٩٨٩، ص٢٢٣-٢٢٤.